التراث اليونانى
فى الحضارة الإسلامية
دراسات لكبار المستشرقين

ألف بينها وترجمها

عبد الرحمن بدوى

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
١٥ شارع المدابغ بمصر
١٩٤٠

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر

فهرس الكتاب

صفحة

مقدمة عامة . . . . ه — ا ى

وارث ووارث

تراث الأوائل فى الشرق والغرب

لكارل هينرش بكر . . . . ٣ — ٣٣

انتقال التراث

من الأسكندرية إلى بغداد

للدكتور ماكس مايرهوف . . . . ٣٧ — ١٠٠

التراجم الارسطالية المنسوبة إلى ابن المقفع

للاستاذ پول كروس . . . . ١٠١ — ١٢٠

الدين والتراث

موقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الاوائل

لاجنتس جولدتسيهر . . . . ١٢٣ — ٢١٧

بحوث فى المعتزلة :

لكرلو الفونسو نلينو . . . . ١٧٣ — ٢١٧

ا — أصل تسميتها . . . . . . ١٧٣ — ١٩٨

ب — اسم القدرية . . . . ١٩٨ — ٢٠٤

صفحة

ح — الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الاباضية
المقيمين فى افريقية الشمالية . . . ٢٠٤—٢١٠
ى — حول فكرة غريبة منسوبة إلى الجاحظ عن
القرآن . . . . ٢١٠—٢١٧
العناصر الافلاطونية المحدثة والغنوصية فى الحديث
لاجنتس جولدتسيهر . . . . ٢١٨—٢٤١

معارضة التراث

محاولة المسلمين ايجاد فلسفة شرقية
لكرلو الفونسو نلينو . . . . ٢٤٥—٢٩٦

ملحق تراجم

كارل هينرش بكر . . . . ٢٩٩—٣٠٦
اجنتس جولدتسيهر . . . . ٣٠٧—٣١٩
كرلو الفونسو نلينو . . . . ٣٢٠—٣٣٠

العناصر الافلاطونية والغنوصية فى الحديث[1]

لاجنتس جولد تسيهر

— ١ —

لسنا فى حاجة إلى إجهاد أنفسنا فى البحث كثيراً من أجل أن نسلم توا بامكان وجود عناصر أفلاطونية محدثة وغنوصية فى داخل هذه المادة الخصبة الغنية التى رويت على شكل أحاديث عن النبى . بل الأحرى أن يقال إنه كان مما يثير الدهشة والعجب حقاً ، مع ما فى الاسلام من خاصية هضم العناصر الأجنبية وتمثُّلها ، أن تخلو وثائق الاسلام الدينية من تأثير الأفكار التى غزت المناطق التى امتد إليها الاسلام وانتشر فيها ، تلك الوثائق التى أخذ أصحابها الكثير من الثروة الروحية للوسط الذى هم فيه وجعلوه على صورة أحاديث للنبى .

وكان التصوف خصوصاً هو الذى عنى بتصوير الكثير من الأفكار الأفلاطونية المحدثة والغنوصية فى صورة إسلامية . فعن دوائر الصوفية صدر الكثير من الأحاديث الموضوعة ، التى قصد بها إلى تبرير قواعد هذا الاتجاه الدينى ، وهو التصوف . وإن النقاد المحققين من أهل السنة ليذكرون أسماء بعض هؤلاء المتهمين بوضع أمثال تلك الأحاديث الصوفية[2] . ويأتى

(١) [ظهر هذا البحث فى « مجلة الاشوريات » Z. A. المجلد الثانى والعشرون سنة ١٩٠٩ من ص ٣١٧ إلى ص ٣٤٤ بعنوان : « Neuplatonische und gnostische Elemente im Hadīt »]

(٢) مثال ذلك أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمى الصوفى النيسابورى (سنة ٣٣٠ — ٤١٢) ، الذى ألف أيضا تفسيراً للقرآن عنوانه « حقائق التفسير » ، أول فيه القرآن « تأويلات الباطنية » . والذين ترجموا له يقولون عنه إنه « كان يضع للصوفية الأحاديث » (الذهبي : « تذكرة الحفاظ » جـ ٣ ص ٢٤٩ ؛ السبكي ، « طبقات الشافعية » جـ ٣ ص ٦٠ السطر الأخير) .

بعد هؤلاء الصوفية ، ممن لا يدخلون فى عدادهم ، الفلاسفة الدينيون الذين من نوع إخوان الصفا ، وهم الذين يروون عن النبى كلاماً يعبر عن آرائهم هم أنفسهم فى مسائل فلسفية دينية . كما أنه كان لمذهب الاسماعيلية فى هذا الميدان جولات وصولات ، وهو المذهب الذى نقل أصحابه نظريات الأفلاطونية المحدثة إلى ميدان الحياة السياسية والاجتماعية الرحب الفسيح . فمن هذه الدوائر كلها صدرت ثروة ضخمة من الأحاديث صُوِّر النبى فيها بصورة ترجمان للأفكار الأفلاطونية المحدثة والغنوصية .

وكثير من هؤلاء لم يكونوا واضعيها ، وإنما هم رأوها موجودة من قبل فاستغلوها من بعد فى سبيل تحقيق غاياتهم ومراميهم . وذلك أن العناصر الأجنبية كانت تأتى أيضاً إلى البيئات الاسلامية دون أن يكون بها ميل واضح إلى ناحية معينة قد قصد اليه قصداً ، فكان الذين يتجهون اتجاهاً خاصاً يكيفونها من بعد ويجعلون لها فى داخل مذاهبهم مكانة عظيمة ، لم يكن يطلب منها فى الأصل أن تكون عليها بحال من الأحوال .

وأريد هنا أن أذكر ، من بين تلك الأحاديث التى تحمل هذا الطابع ، حديثاً مأخوذاً عن نظرية الصدور التى قال بها الأفلاطونيون المحدثون .

فكما أن نظرية الوسط [القائلة بأن كل فضيلة وسط بين رذيلتين] التى قال بها ارسطو فى الأخلاق قد صيغت فى عصر متقدم على صورة حديث عن النبى (١) ، فان جزءاً لا شك فيه من نظرية الصدور الأفلاطونية المحدثة قد روى باعتباره حديثاً عن النبى .

فالقول بأن العقل الكونى هو أول شىء صدر مباشرة عن الذات الآلهية يُصوَّر على النحو الآتى : « أوَّلُ ماخلق اللهُ العقلَ . فقال له : أقبِلْ ، فأقبَلَ . ثم قال له : أدْبِر ، فأدْبَرَ . ثم قال الله عزّ وجلّ : وعزتى وجلالى ،

---

(١) راجع كتابى « دراسات إسلامية » *Muh. Studien* ، ج ٢ ص ٣٩٨ .

ماخلقتُ خلقاً أكرمَ عليّ منك ، بكَ آخذ ، وبك أعطى ، وبك أثيب ، وبك أعاقِب » .

وهذا التصوير الذى لا يتفق مع تصوير القرآن لخلق الكون عدّ حديثاً عن النبى . فنرى رجلا كالغزالى (١) يورده باعتباره حديثاً عن النبى مع طائفة أخرى من الأحاديث التى يمجد فيها العقل ، نذكر من بينها ما يهمنا فى هذا المقام ، الحديث التالى أيضاً : روى أن عبدالله بن سلام سأل النبى « فى حديث طويل فى آخره وصف عظم العرش وان الملائكة قالت ياربنا هل خلقت شيئاً أعظم من العرش ، قال نعم (٢) : العقل » . وليس من شك فى أن هذه الأحاديث إنما وضعت تحت تأثير الفكرة القائلة بأن العقل الكونى هو أول جوهر روحى صدر عن الذات الالهية ، وهى داخلة فى عداد تلك المجموعة الضخمة من الأحاديث الموضوعة فى هذا المعنى ، والتى لابد وأن يكون قد ورد الكثير منها فى ذلك الكتاب الذى ذكره الغزالى ، ونعنى به كتاب « العقل » لداود ابن مُحَبَّر البصرى (المتوفى سنه ٢٠٦)(٣) ، وهو عبارة عن طائفة من الأحاديث الخاصة بتمجيد العقل وبيان فضائله . وهذا الكتاب قد فقد ، وكان له تاريخ خاص شائق (٤) .

والحديث الذى أوردناه آنفا ، والذى إن أمعنا النظر فيه وجدناه لا يكاد يتفق مع المعتقدات الاسلامية السائدة ، سرعان ما انتشر وحُرِص على إذاعته فى البيئات الاسلامية المتحررة التى أضافت إلى الاسلام أفكاراً افلوطينية أو طبعت اسلامها بطابع افلوطينى (مثل اخوان الصفا والاسماعيلية والمتصوفة) . ولكنه لم يخترع فى هذه البيئات ، إنما هى تلقته فرحبت به

---

(١) « الاحياء » ، الطبعة الأولى ، جـ ١ ، ص ٨٢ ، س ٢٠ (راجع أيضا ديسو ، « تاريخ النصيرية ودينهم » ص ٥٠ Dussaud, *Hist. et relig. des Nosairis*) .

(٢) الكتاب المذكور ، جـ ١ ، ص ٨٨ .

(٣) المرتضى ، « اتحاف السادات » (طبعة القاهرة سنة ١٢٩٣) جـ ١٠ ، ص ٣١ .

(٤) راجع الملحق رقم ١ ، الموجود بآخر هذا البحث .

أحرّ ترحيب ، وصادف هوى فى نفسها فحرصت عليه وتعلقت به ، وأهابت به فى كل مرة كان فيها ملائما لنظرياتهم ، مؤيداً لمذاهبهم . أما البيئات السنية فكان طبيعيا أن تأخذه على تلك البيئات المتحررة باعتباره حديثا موضوعا قصد به إلى تأييد اتجاه معين(١) . واذا كان الغزالى قد استخدمه ايضا ، فليس لهذا فى نظرها كبير قيمة ، لأن حجة الاسلام الكبير لم يكن ينظر اليه ، حتى من جانب من أجلوه ومجّدوه (٢) ، باعتباره ناقداً جيداً فى الحديث: فانه كان يتقبل الأحاديث غير الموثوق بها ، من جميع المصادر والجهات ، فى شيء من التسامح كثير(٣).

وثمة حديث آخر ذو طابع غنوصى كان حظه من الهجوم عليه والطعن

---

(١) يقول ابن تيمية ، « تفسير سورة الاخلاص » (القاهرة ، طبع النعسانى ، سنة ١٣٢٣) ص ٥٨ ، بعد أن أورد مذهب الافلاطونية المحدثة فى الجواهر الروحية الخالدة : « والملاحدة الذين دخلوا معهم من أتباع بنى عبيد ، كأصحاب رسائل إخوان الصفا ، وغيرهم كملاحدة المتصوفة مثل ابن عربى وابن سبعين وغيرهما ، يحتجون لمثل ذلك بالحديث الموضوع: أول ما خلق الله العقل » .

(٢) يقول السبكى فى « طبقات الشافعية » ج ٤ ص ١٢٧ : « فالغزالى معروف بأنه لم تكن له فى الحديث يد باسطة . وعامة ما فى « الاحياء » من الأخبار والآثار مبدد فى كتب من سبقه من الصوفية والفقهاء ، ولم يسند الرجل لحديث لواحد » . كذلك نرى عبد الرحمن العراقى (المتوفى سنة ٨٠٦ هـ) ، فى كتابه « تخريج أحاديث إحياء العلوم » ، يلاحظ ملاحظات نقدية كثيرة على الغزالى .

(٣) عنى خصوم الغزالى من رجال الدين (الحنابلة) بالاشارة إلى هذا كثيراً . فأبو الفرج الجوزى الف كتابا خاصا فى هذا ، وحفيده (سبط ابن الجوزى) وافقه على هذا الحكم : « قال أبو الفرج بن الجوزى قد جمعت أغلاط الكتاب (احياء علوم الدين) وسميته « إعلام الأحياء بأغلاط الاحياء » اشرت إلى بعض ذلك فى كتاب « تلبيس إبليس » ، وقال سبطه أبو المظفر : وضعه على مذاهب الصوفيه ، وترك فيه قانون الفقه ، فأنكروا عليه ما فيه من الأحاديث التى لم تصح » (ذكره الآلوسى فى كتابه « جلا العينين » ص ٧٤) . راجع فيما يتعلق بضعف الغزالى فى نقد الأحاديث (مناظرة ابن حجر والعينى فى هذا (القسطلانى ج ٩ ص ٣٦٠ (فى باب : «رقاق» برقم ٥١) . وفى كتاب «تفسير سورة الاخلاص» ص٧٢ فى أسفل ينقد ابن تيمية الغزالى فى هذا الصدد نقداً عنيفا فيقول : « فانه لم يكن يعرف ما قاله احمد ، ولا ما قاله غيره من السلف فى هذا الباب ، ولا ما جاء به القرآن والحديث » .

فيه أقل من حظ الحديث السابق . فيروى عن النبي أنه قال : « إن أول شيء خلقه الله القلم ، فأمره فكتب كلّ شيء يكون » . وهذا الحديث ذكره الطبرى فى صيغ عديدة [١] ، بينما هو كان يجهل الأحاديث المتعلقة بالعقل جهلا تاما . وهناك فى كتب أخرى ، فيها وصف لكيفية خلق الوجود وصفاً يتفق مع السنة بمعناها الضيق ، كما فى كتاب « العرائس [٢] » للثعلبي مثلا ، نجد ذكراً للأحاديث المذكور فيها القلم [٣] ، بينما الأحاديث المذكور فيها العقل قد أغفلت إغفالا تاما . وذلك لأن تلك الفكرة الخاصة بالقلم أسهل فى التوفيق بينها وبين ماأتى به الاسلام ، نظراً إلى النحو الذى ذكر عليه القلم فى القرآن . ومن أجل هذا كانت تجد تسامحاً أكثر عند أهل الحديث [٤]. أما الحديث الخاص بالعقل فلم يكن من المستطاع أن يحظى بمثل هذا التسامح .

غير أن هذا الحديث قد وجد على كل حال ، وكان يردد ويتكرر ذكره بطريقة آلية دون اعتبار لمعناه واحتياط لنتائجه ، ولم يكن من الصعب أيضاً أن يجعل له إسناد . أما ذوو الفطنة فكان عليهم أن يفلوا من حدته على أقل تقدير . وهذا تم مبكراً جداً بأن أحدثوا فى نص الحديث بعض التغيير ، فجعلوا صيغته على النحو التالى : « لما خلق الله العقل » ، بدلا من : « أول ماخلق الله العقل » ، واعتبار العقل من خلق الله شيء مفهوم مسلم به . وفى هذه الصيغة الأهون خطراً استطاع هذا الحديث أن يجد قبولا جدياً فى دوائر سنية واسعة باعتباره «حديثاً مرفوعا». فان ابن احمد بن حنبل جعل له مكاناً بين الاضافات التى أضافها إلى كتاب « الزهد » الذى ألفه أبوه (واسم هذه الاضافات :

---

(١) « تاريخ » الطبرى ص ٢٩ — ص ٣٨ .

(٢) طبعة القاهرة (الحلبي ١٣١٢) ص ١٠ ، س ٢٢ .

(٣) راجع فيما يختص بهذه الاحاديث ما قلناه فى « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » المجلد رقم ٥٧ ص ٣٩٦ ، تعليق رقم ٦ .

(٤) راجع الروايات المختلفة فى « كنز العمال » ، برقم ٣٣٠٦ ، ٣٣١٤ وما يليه ، مأخوذة عن مسند ابن أبى شيبا والدارقطنى .

« زوائد الزهد ») ، والطبرانى جعل له إسناداً ينتهى عند أبى هريرة ، الذى كان قادراً على أن يتحمل كل إسناد ! وهناك آخرون — مثل ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية — يمنعون من روايته حتى فى هذه الصيغة المتلائمة مع السنة قائلين : « لا يصح فى العقل حديث »(١) ، بينما نجد من جديد أناساً أقل تشدداً يحتاطون فى الحكم عليه ، فيقولون إنه ليس من المستحسن أن يحكم على حديث بأنه موضوع ، إذا كان هذا الحديث مختلفاً فيه(٢) .

وفى هذه الصيغة الجديدة عانى النص تغييرات وتزويقات كثيرة من جديد أيضاً : فالله لا يقول للعقل أقبل فيقبل وأدبر فيدبر فحسب . بل يقول له أيضاً أقعد فيقعد ، وانطق فينطق ، وأصمت فيصمت ؛ ويضاف إلى فضائل العقل السابقة الذكر فضائل أخرى كثيرة ، فيقول له الله : « بك أعرف ، وبك أحمد ، وبك أطاع(٣) » . ولعل هذه الصفات التى تضاف إلى العقل أن تكون توسعاً فى نص حديث « أول ماخلق الله العقل » .

وثمة تغيير حاسم فى حديث العقل ظهر فى روايته فى صيغة أوردها مجير الدين فى مقدمة كتاب تاريخ القدس ، يذكر فيها العقل لا باعتباره أول ماخلق الله وانما باعتباره آخر شيء خُلق ، أما أول شيء خلق فهو اللوح المحفوظ والقلم . فبعد أن خلق الله الوجود بما فيه من عجائب ، أوجد فى النهاية العقل . ولكن ظل الخطاب الذى وجهه الله الى العقل ، فى هذه الصيغة الجديدة ، كما هو فى الحديث الذى ذكرناه آنفاً(٤) . فنحن هنا اذاً بازاء محاولة جديدة من أجل صياغة حديث العقل فى صيغة مقبولة ممكنة .

(١) راجعه فى « الدرر المنتثرة » (بهامش كتاب « فتاوى حديثية » ، طبعة القاهرة سنة ١٣٦٧) للسيوطى ص ١٩٧ .

(٢) ذكر ذلك القاوقجى فى كتاب « اللؤلؤ المرصوع فيما لا أصل له أو باصله موضوع » (طبعة القاهرة ، المطبعة البارونية ، بدون ذكر تاريخ) ص ٦٤ فقال : « وحيث أختلف فيه لا يحسن الحكم عليه بالوضع » .

(٣) « كنز العمال » برقم ١٩٢٨ .

(٤) « الأنس الجليل » ص ١٢ .

وليس أدل على توطن هذا الحديث الممنوع، حتى بصورته الأولى، فى العلوم الدينية الاسلامية على الرغم من احتجاجات أهل السنة وعلى الرغم من تحايلات رجال الحديث، نقول ليس أدل على هذا من أن واحداً من أكثر أهل السنة تشدداً وتعصباً، رأى نفسه مضطراً إلى الالتجاء إلى أن يؤول الحديث تأويلا نحوياً من شأنه أن يسلب الحديث اتجاهه الافلوطينى. فليس الحديث: أولُ ما خلق الله العقلُ (أى أول شىء خلقه الله هو العقل) وإنما هو أولَ ما خلق الله العقلَ (أى لما خلق الله العقل) قال ... الخ. ويقابل هذا فى العبرية בראשית בָּרָא (أى: فى البدء خلق) = בִּבְרֹא (أى: لما خلق) فكأن خلق العقل إذا قد سبقه خلق المخلوقات الأخرى، بعكس ما يقوله الأفلاطونيون المحدثون(١). ونرى من هذا كيف أن ابن تيمية الذى ابتكر هذا التقدير البارع استطاع أن يبلغ به نفس الغرض الذى حاول اسلافه أن يبلغوه بتغييرهم فى الحديث تغييرا كبيرا، وذلك بأن يضعوا «لما» بدلا من «أول ما»، وبأن يغيروا فى الترتيب.

— ٢ —

وهناك عنصر أجنبى أدخل فى تكوين نظرية أهل السنة فى النبى. ولكن على الرغم من أنه أجنبى فقد ظهر أنه ملائم وقابل لأن يهضمه أهل السنة(٢). وذلك العنصر هو تصوير محمد باعتبار أنه كان موجودا من قبل أن يوجد على الأرض. وهذا التصوير لا يبدو كنظرية قالت بها المدارس الغنوصية والصوفية، وإنما يبدو فى صورة أحاديث موثوق بصحتها، منتشرة فى البيئات السنية على اعتبار أنها قول قال به النبى نفسه.

---

(١) «الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان» ص ٥٤: «وعندهم أن جميع جواهر العالم العلوى والسفلى صدر عن ذلك العقل».

(٢) راجع ماقلناه فى «مجلة الجمعية المشرقية الألمانية» المجلد رقم ٦٢ ص ١٣ وص ٢٦ ومايليها

فالحديث التالى منتشر انتشاراً عاما ، ونعنى به : « كنت نبياً وآدم بين الطين والماء » ، أى قبل أن يخلق الله آدم من هذه المواد ، أو أنه كان نبياً قبل أن يوجد آدم وقبل أن يوجد الطين والماء (اللذين منهما خلق آدم) . ومع أن المتشددين من نقدة الأحاديث رفضوا صوغ هذه النظرية على هذا النحو[١] إلا أنهم اضطروا مع ذلك إلى التسليم بصحـــة هذه النظرية تبعاً لمعاييرهم الخارجية الظاهرية التى يعتمدون عليها فى معرفة صحة الأحاديث . فهم يعترفون بها أولا فى صيغة الرواية التى أوردها الترمذى (ج ٢ ص ٢٧٢) فى « سننه » معلقاً على الحديث بقوله : « حديث حسن صحيح غريب » . فى هذه الصيغة يروى أبو هريرة أن النبى حين سئل متى جاءته النبوة ، قال : « وآدم بين الروح والجسد » . ثم إنهم يعترفون أيضاً بالرواية[٢] التى ذكرها ابن سعد فى «طبقاته» (القسم الأول ، ج ١ ص ٩٦ س ٢) باسناد إلى عرباض بن سارية الصحابى ، وهى الرواية القائلة بأن النبى قال : « إنى عبد الله وخاتم النبيين[٣] وإن آدم لمنجدل فى طينته » ، أى بينما كان آدم لا يزال فى الطين الذى خلق منه . وفى فصل خاص (الكتاب المذكور ص ٩٥ س ١٥ وما يليه) جمع ابن سعد الروايات المختلفة لهذه النظرية اعتماداً على روايات رواته الثقاة .

---

(١) ابن تيمية فى رسالته « فى الكلام على القصاص » ، وفيها يطعن على الأحاديث التى يرويها القصاص ويقول إنها أحاديث باطلة (« الرسائل » ج ٢ ص ٣٤٠) . وقد أورد القاوقجى (ص ٣١) هذه الأحاديث نقلا عن السخاوى .

(٢) لكن هذا الحديث المروى عن أرباض عن النبى يروى أيضا فى صيغة أخرى يظهر أن المراد منها التخفيف من فكرة وجود محمد وجودا سابقا . فالهروى (المتوفى سنة ٤٠١) يرويه فى كتابه «الغريب» (أورده كتاب «النهاية» ، تحت لفظ : جدل ج ١ ص ١٤٩ ، وعنه أخذ « لسان العرب » المجلد ١٣ ص ١٠٩ فى أسفل) : « أنا خاتم النبيين فى أم الكتاب، وإن آدم الخ ... » . وهذه الصيغة لاتدل إلا على أن الله قد قضت مشيئته ، قبل أن يخلق آدم ، أن يكون محمد نبيا . ولكن ليس من شك فى أن ابن سعد يورد النص الأصلى للحديث .

(٣) أورده ابن تيمية فى الموضع المذكور ، وابن قيم الجوزية فى « هداية الحيارى » (القاهرة سنة ١٣٢٣) ص ٦٣ بالنص التالى : « إنى عند الله لمكتوب خاتم النبيين الخ »

وليس أدل على أن المراد من كل هذه الأحاديث هو تصوير محمد باعتبار أنه كان موجودا سابقاً ، من الرواية المنسوبة إلى قتادة (المتوفى سنة ١١٧) البصرى (الكتاب المذكور ص ٩٦ س ١٦) : روى عن النبى أنه قال : « كنت أول الناس فى الخلق وآخرهم فى البعث » ، أى انى خلقت قبل خلق جميع الناس .

ثم جاءت نظرية الشيعة فى النبوة فاستخلصت نتائج هذا التصوير البعيدة وذلك لأنه لما كان الشيعة قد ارتفعوا ، فى نظرياتهم ، بطبيعة الأئمة إلى مقام فوق مقام الطبيعة الانسانية وجعلوا لهؤلاء مكانة فى العالم العلوى ، كان من الضرورى أيضاً أن يكون محمد نفسه باعتباره جداً أعلى للأئمة ، أن يكون له نصيب فى الأسطورة التى نسجتها الشيعة حول أهل البيت . فحين خلق الله آدم وضع فى ظهره محمد وعلى وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين على صورة جواهر منيرة[1] أرسلت نورها فى جميع أنحاء العالمين العلوى والسفلى . ولهذه الجواهر الموضوعة فى جسم آدم كان السجود الذى أمر الله الملائكة به ، فسجدوا إلا ابليس ، أبى واستكبر وحينئذ أمر الله آدم أن يرتفع ببصره إلى ذروة العرش ، فرأى آدم كيف انطبعت صور أنوار أشباح محمد وبقية أفراد أهل البيت فى العرش « كما ينطبع وجه الانسان فى المرآة الصافية »[2] . (راجع الملحق رقم ٢) .

وهذه العملية يتحدث عنها التفسير الذى أهداه الشيعة إلى الامام حسن العسكرى فيطيل الحديث ، مضيفاً إلى ذلك ملاحظة على أسماء أهل البيت ،

---

(١) ويقالون فى هذا الوجود وجودا سابقا بقولهم إن الله خلق أرواح أفراد أهل البيت قبل أبدانهم بألفى عام : « وخلق الله أرواح شيعتنا قبل أبدانهم بألفى عام » ، (الكلينى ، « الأصول من الجامع الكافى » ، طبعة بومباى ص ٢٧٦ فى أسفل) .

(٢) « تفسير العسكرى » ص ٨٨ : « أنظر يا آدم إلى ذروة العرش ! فنظر آدم ، ورفع نور أشباحنا من ظهر آدم إلى ذروة العرش ، فانطبع فيه صور أنوار أشباحنا التى فى ظهره ، كما ينطبع وجه الانسان فى المرآة الصافية . فرأى أشباحنا فقال : يا ربنا ما هذه الأشباح؟ قال الله : يا آدم ، هذه أشباح أفضل خلائقى وبراياى ، هذا محمد الخ » .

فيقولن إن الله علم آدم أن تلك الاسماء الخمسة ذات نسب باسم الله كلاًّ بحسب أهميته ومرتبته (« شققت لهم اسما من اسمى ») . ولهذا فان دعاء الله يؤثر أعظم التأثير إذا ما استشفعوا اليه .

وفيما يتصل بفكرة انطباع صور المصطفين من عباد الله فى عرشه ، اعتقد أن هذه الفكرة أتت من تصورات يهودية ، وأنها شاهد جديد على أن مصادر غلو الشيعة فى الأئمة يجب أن لا يبحث عنها فى الميدان الفارسى فحسب . فان الهجاداه (١) تقول فى أحدى الروايات التى ترويها إن صورة الانسان الموجود بالجزء الأعلى من العرش السماوى (حزقيل ١ : ٢٦) هى صورة يعقوب التى رفعت إلى عرش الله . والملائكة الذين يصعدون وينزلون على سلم السماء (التكوين ٢٨ : ١٢) يعرفون فى وجه الرحالة النائم الصورة السماوية الأولى(٢). فتمثيل صورة جد بنى اسرائل منطبعة منذ القدم فى عرش الله ، يبدو أنه كان نموذجا لتمثيل صورة أجداد الأئمة فى هذا المكان السامى نفسه .

إلا أن الأسطورة الشيعية لا توضح لنا ، هل هى تعتبر صور أهل البيت

(١) [تنقسم الكتب التى تشتمل على تعاليم الديانة اليهودية إلى قسمين : قسم ذى طابع تشريعى اسمه « هالاكاه » ؛ والآخر يشتمل على الكتب الأخرى واسمه « هجاداه » (من الفعل هجيد ، أى شرح ، علم) . وهذه الكتب الأخيرة تشتمل على قصص تكمل أو توضح قصص الكتاب المقدس ؛ وعلى تعاليم دينية وأخلاقية خاصة بالله وصلته بالعالم والانسان ؛ وواجبات الانسان نحو الله ونحو الجار ؛ وبالمعتقدات الدينية ؛ وعلى أقوال سياسية مثل التعاليم الخاصة بعلاقات الشعب الاسرائيلى مع الشعوب الاخرى ، وتعزيات له عن أحواله السيئة الحاضرة التى هو فيها ، وحث على الأمل فى مستقبل أحسن ؛ وأخيرا على أمثال وقصص شعبية]

(٢) تلمود بابلى ، كتاب خولين ص ٩١ ب : « هم يصعدون وينظرون إلى الصورة التى فى العلا » ؛ سفر تكوين ربا من الترجوم فصل ٦٨ (مع الاشارة إلى سفر أشعيا ٤٩ : ٣): « أنت الذى صورتك منطبعة فى العلا » ؛ الترجوم الاورشليمى على سفر التكوين آية ١٢ اصحاح ٢٨ : « يعقوب الصديق الذى صورته مثبتة فى كرسى الجلالة » . كذلك يرد فى الاناشيد المستعملة فى العبادة (مثل القدوشا فى صلاة موسياف التى تقام فى اليوم الثانى من عيد رأس السنة) : « صورة الطاهر منطبعة فى العرش » ؛ وكذلك فى صلاة أوفان التى تقام فى يوم سبت نحو : « البطل الطاهر منطبع فى العرش » (راجع بير Beer ، « عبادة اسرائيل » ص ٧٧٦ س ٨) .

منطبعة إلى الابد منذ القدم فى عرش الله — كما هى الحال فى صورة يعقوب عند اليهود — أو تعتبر أن ظهورها كان انعكاساً مؤقتاً فحسب ، كان الغرض منه أن يتأملها آدم . ومهما يكن من شىء فان هذه الأسطورة التى نحن بصددها تقدم لنا صورة من صور التعبير عن الاعتقاد بوجود محمد وجوداً سابقاً .

ويتصل بهذا أوثق اتصال تلك النظرية القائلة أن جوهر النبى النورانى يتوارث جيلا بعد جيل — بمعنى آخر طبعاً غير المعنى الذى قصد اليه الشعراء الذين عاصروا النبى ، حين مدحوه بقولهم إنه نور أضاء على البرية كلها ،(١) وإنه نور يُستضاء به(٢) .

وما نريد أن نتحدث عنه هنا هو تلك العقيدة التى نشأت مع تقديس نبوة محمد ، القائلة بأن فى النبى جوهراً نورانياً قائماً به قياما حقيقياً واقعياً ، وضع أول ماوضع فى جبهة آدم ، وانتقل من آدم على توالى العصور وباستمرار إلى حامل الشريعة الالهية والرسالة الربانية حتى وصل ، بعد أن مر بأجداد النبى ، إلى النبى وتجلى فيه هو نهائياً (٣) . وتوسع الشيعة فى هذه العقيدة أيضا توسعا كبيراً ، فيه غلو وفيه إفراط شديد . ولكن عناصرها الأولى كان معترفا بها عند أهل السنة أيضاً ، بل أفضت فى البيئات السنية نفسها الى أسطورة ضخمة :

فبعد أن أمر الله الملائكة بأن يأتوا بقبضة تراب من زوايا الأرض الأربع ، أمر جبريل أن يأتيه بالقبضة البيضاء ليخلق منها محمداً . حينئذ « هبط جبريل ... فى ملائكة الفردوس المقربين الكروبيين وملائكة

---

(١) حسان بن ثابت ، أورده ابن هشام ص ١٠٢٥ س ٢ .

(٢) كعب بن زهير ، « بانت سعاد » البيت رقم ٥١ .

(٣) فى الكتب التى تعرض قصص الانبياء يذكر أن النور المحمدى ينتقل من جبين آدم إلى شيث أولا ، ثم أنوش ثم قينان الخ ، وعن طريق اسماعيل إلى أجداد النبى ، راجع ما يقوله ابن إياس فى « بدائع الزهور ووقائع الدهور » (القاهرة ، المطبعة الكستلية سنة ١٢٩٦) ص ٤٤ وما يليها .

الصفح الأعلى فقبض قبضة » من الموضع الذى سيكون يوما ما قبراً للنبى « (أى القبضة) يومئذ بيضاء نقية ، فعجنت بماء التسنيم ، ورعرعت حتى صارت الدرة البيضاء ، ثم غمست فى أنهار الجنة كلها . فلما أخرجت من الأنهار نظر الحق سبحانه وتعالى الى تلك الدرة الطاهرة فانتفضت من خشية الله تعالى فقطر منها مائة ألف قطرة وأربعة وعشرون ألف قطرة ، فخلق الله سبحانه وتعالى من كل قطرة نبيا. فكل الأنبياء صلوات الله على نبينا وعليهم من نوره خلقوا . . . ثم طيف بها فى السموات والأرض فعرفت الملائكة حينئذ محمداً . . . قبل أن تعرف آدم . ثم عجنها بطينة آدم » . وهذا هو نور محمد ، وضع فى جبين آدم ، فأضاء كالقمر ليلة البدر . فكأن الملائكة إذاً قد عرفوا محمداً قبل أن يعرفوا آدم(١) .

وكل ما هنالك من خلاف جوهرى بين تصوير الشيعة لهذه الفكرة وتصوير أهل السنة ، هو فى أن الشيعة يؤكدون أن علياً كان له نصيب فى انتقال الجوهر النورانى انتقالا مستمراً جيلا بعد جيل من الجد الواحد من أجداده إلى الجد الآخر . فقبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف سنة كان محمد وعلىّ نوراً واحداً بين يدى الله(٢). فلما خلق آدم سرى هذا النور ، وهو على هذا النحو من الوحدة غير المنقسمة ، « فى الأصلاب الطاهرات والأرحام الزاكيات » ، حتى وصل الى عبد المطلب وحينئذ انقسم الجوهر النورانى الربانى فذهب قسم الى عبدالله ، والد النبى ، وقسم الى أبى طالب ، والد على .

(١) الثعلبى ، كتاب قصص الأنبياء المسمى « بالعرائس » (طبعة القاهرة ، الحلبى سنة ١٣١٢) ص ١٦ فى منتصفها ؛ ص ١٧ فى السطر السابق على الأخير .

(٢) يورد ابن المطهر الحلى فى « كشف اليقين فى فضائل أمير المؤمنين » (ألف من أجل السلطان أولجيتو خودابنده وطبع فى بمباى سنة ١٢٩٨ ملحقاً بكتابه الكبير « الفرق بين الصدق والمين » (وهو ألف برهان على امامة على مضافا اليها ألف أخرى للرد على خصومه) ، ص ٤ حديث سلمان عن النبى : « كنت أنا وعلى نوراً بين يدى الله قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف سنة ، فلما خلق الله آدم سلك ذلك النور فى صلبه الخ » .

وفى هذا المعنى ينسب الشيعة(١) الى محمد أنه قال عن عليّ أنه : « المتردد معى من الأرحام الزاكيات ، والمتقلب معى فى الأصلاب الطاهرات ، والراكض معى فى مسالك الفضل ، والذى كسب ما كسبتُه من العلم والحلم والعقل ، وشقيقى الذى انفصل منى عند الخروج الى صلب عبد الله وصلب أبى طالب » .

— ٣ —

وعلى كل حال فان أهل السنة لم يستخلصوا من فكرة « النور المحمدى » كل نتائجها كما فعل الشيعة . ولكنهم كلما تطوروا وبمقدار سماحهم بإيجاد نوع من عبادة محمد وتقديسه ، نراهم لم يكونوا متشددين فى عدم الاقتراب من نظرية الشيعة فى النبوة . يدل على ذلك المثال التالى :

كان أهل السنة فى البدء ينكرون الرأى القائل بأن أجداد محمد كانوا مؤمنين ، وهو الرأى الذى يقول به الشيعة . ويعتمدون فى ذلك على أحاديث تدل على أن أجداده الذين كانوا قبل أن يبعث نبياً ماتوا كافرين ، ولكن النبى توسل فى بعثهم بعد أن ماتوا على الكفر ، من أجل شىء واحد هو أن يؤمنوا بالدين القويم . وبهذا المعنى وحده يعد النبى ابناً لآباء مؤمنين . وأتوا بآية من القرآن (٢٨ : ٥٦) أيضاً للدلالة على أن عبد الله لن يدخل الجنة(٢) وحرصوا على أن يقولوا ، بخلاف ما يقوله الشيعة ، بأن والد عليّ بن أبى طالب مات كافراً(٣) ، وكانت عناية الدوائر السنية بترديد هذا القول عناية بلغ من شدتها أن هذا القول دُسّ على كتاب «الفقه الأكبر» المنسوب الى أبى

(١) « تفسير العسكرى » ص ٧٣ .

(٢) « الكامل » ص ٧٨٨ ، س ٧ وما يليه .

(٣) نلدكه ، « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » المجلد رقم ٥٢ ص ٢٧ ؛ راجع « عيون الأخبار » ص ٣١١ س ١٠ .

حنيفة (١) ، إن لم يكن قد وجد فيه من الأصل ثم حذف منه من بعد .

ولا يتصل بهذا مسألة طهارة آباء النبي من كل سفاح ، فحتى لو كان أجداده القريبون كفاراً ، إلا أنه كان زواجهم جميعا حتى أقدمهم ، زواجا صحيحا من وجهة نظر الاسلام (٢) . فما كان عاراً بالنسبة الى العربى العادى ، ونعنى به أن يكون فى آبائه سفاح ، لا يمكن أن يكون موجوداً فى آباء النبي . كما لا يمكن أن يكون فى سلسلة نسبه نكاح من نوع نكاح المقت ، [وهو أن يتزوج الانسان امرأة أبيه من بعده] . بل إنا نرى رجلا ذا نزعة عقلية كالجاحظ يعتبر كافراً كل من اعتقد غير هذا ولم ينكر إنكاراً باتاً إمكان وجود سفاح فى آباء النبي وأصلابه (٣) .

وكلما ازداد تقديس النبي فى الدوائر السنية الاسلامية (٤) ، كلما عمل مذهب السنة على التوسع فى استخلاص نتائج فكرة انتقال نور النبي من آدم الى محمد . فقالوا ان هذا الاعتقاد ينفى إمكان أن يكون أحد أجداد النبي كافراً

---

(١) كذلك فى النص الذى شرحه على القارى (القاهرة سنة ١٣٢٣) ص ٩٦ وما يليها ؛ والفقرة الآتية : « ورسول الله صلعم مات على الايمان ، وأبو طالب عمه صلعم وأبو على رضى الله عنه مات كافراً » لا توجد فى متن « الفقه الأكبر » الموجود فى آخر هذا الشرح . بل إن فكرة أن أبوى محمد كانا كفاراً قد دست على بعض نسخ « الفقه الأكبر » ، راجع بحث محمد بن شنب فى « المجلة الافريقية » سنة ١٩٠٦ ص ٢٦٣ *Revue Africaine* .

(٢) ويجعلون الأحاديث الآتية أساساً لهذه النظرية : « لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات » (أورده فخر الدين الرازى فى « مفاتيح الغيب » ج ٦ ص ٥٤٨ ، عند تفسيره للآية ٢١٩ من السورة رقم ٢٦) ، أو : « ما زلت أخرج من نكاح كنكاح الاسلام حتى خرجت من بين أبي وأمى » ، وكذلك : « كلنا نكاح ، ليس فينا سفاح » . وقد حاول رجال الدين التوفيق بين الصعوبات التى قامت ضد هذا الحديث الأخير (وجود سفاح فى اجداد الرسول) وبين نظريتهم هاتيك ، عن طريق تصحيحات فى نسبه صادرة عن الهوى والغرض .

(٣) فى « كتاب الاصنام » ؛ وهذا الموضع أورده الدميرى تحت لفظ « قرش » ج ٢ ص ٢٩٢ فى أسفل : « ومن اعتقد غير هذا فقد كفر ، وشك فى هذا الخبر ، والحمد لله الذى نزهه عن كل وصم ، وطهره تطهيراً » .

(٤) راجع فيما يتعلق بازدياد تقديس محمد ازديادا مستمراً ، بحثنا الذي ظهر فى « مجلة فينا لمعرفة الشرق » ، المجلد رقم ١٥ ص ٣٣ .

وخصوصا أبواه . ثم إن المشركين نجس كما هو وارد فى القرآن (٩ : ٢٨) فكيف يمكن أن يكون أجداد النبي الأطهار مشركين ؟ الأولى أن يقال إنه منذ آدم لم يكن ثمة مشرك فى سلسلة نسب الرسول . ومن بين المدافعين عن هذه العقيدة فخر الدين الرازى . حتى أن جلال الدين السيوطى شعر بأنه مدين له بالشكر والثناء لدفاعه عنها وتأييده لها فى « تفسيره [١] » فقال فيه :

من آدم لأبيه عبـــد الله ما فيهم أخو شرك ولا يستنكف
فالمشركون كما بسورة توبة نجَسٌ ، وكلهم بطهر يوصف
وبسورة الشعراء فيـــه تقلب فى الساجدين [٢] فكلهم مُتَحَنِّف
هـذا كلام الشيخ فخر الدين فى « أسراره » هبطت عليه الزرَّف
فجزاه رب العرش خيرَ جزائه وحباه جنات النعيم تزخرف [٣]

ومن أجل هذا فان من المفهوم طبعاً عند السيوطى أن والدى النبى على الأقل لايمكن أن يكونوا كفاراً : فعبد الله كان النور المحمدى واضحا على جبينه ، وآمنة أخذت هذا النور عن زوجها — وهذه فكرة تقول بهـــا الأخبار القديمة عن حمل النبي ومولده . [٤] ويتردد ذكرها دائماً بصورة شعبية فى قصائد المولد [٥] . والسيوطى أشد الكتاب الاسلاميين حماسة لهذه الفكرة حتى أنه كرس للدفاع عنها وتأييدها مالا يقل عن ثمان رسائل خاصة [٦] جمعت فى مجموعة ، وطبعت فى إحدى مطابع حيدر أباد سنة ١٣١٦ [٧] .

---

(١) لعل الاشارة إلى ج ٦ ص ٥٤٨ .

(٢) سوره رقم ٢٦ ، آية رقم ٢١٩ .

(٣) من « قصيدة فى إيمان أبوى النبى » ، مطبوعة فى كتاب محيي الدين العطار ، « بلوغ الأدب فى مآثر العرب » (طبيعة عبيه فى لبنان سنة ١٣١٩) ص ٧٠ — ص ٨٠ .

(٤) ابن سعد ، القسم الأول ، ج ١ ص ٥٩ = ابن هشام ص ١٠١ س ٧ وما يليه

(٥) كما ترى مثلا فى كتاب أحمد بن عمـار ، « نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب » (طبعة الجزائر سنة ١٩٠٢) ص ٣٧ .

(٦) راجعها فى بروكلمن ج ٢ ص ١٤٧ بارقام ٤٣ إلى ٤٨ .

(٧) ابن شنب ، « المجلة الافريقية » سنة ١٩٠٦ ص ٢٦٣ .

وطالما كانت فكرة انتقال الجوهر النورانى الموجود وجوداً سابقاً موجودة فى نطاق مذهب السّنة ، فان هذه العملية ، عملية الانتقال، قد انتهت بظهور محمد (١) ، بينما مذهب الشيعة يجعل انتقال النور المحمدى يستمر فى سلسلة الأئمة . هذا إلى أن نظرية النور المحمدى هذه قد قيل بها خارج دائرة المذهب الشيعى فى عصر متأخر من أجل استخدامها فى المناورات السياسية الدينية ، فنراها تظهر بطريقة تستحق النظر والعناية سنة ١٥٢٠ بمدينتى كشغر ويرقند حيث نرى حركة خوجه ، كما أوضح ذلك مارتن هَرْتمَن، تعتمد فى قيامها على ادعاء أن النور المحمدى انتقل بطريق مستمر لاانقطاع فيه إلى مخدوم . وكان النزاع الذى حدث بين أبنائه مصدره مسألة إلى من منهم انتقل الجوهر النورانى الذى حل فى أبيهم مدة ما (٢).

ونحن لم نعن بالتحدث عن هذه المظاهر الأسطورية فى نظرية النبوة عند المسلمين وتطوراتها وتفرعاتها ، إلا لكى نكشف عن أقدم الوثائق التى كانت أساساً لها .

وأنا أرى فى بعض أبيات الكميت نوعاً من مثل هذه الوثائق . فانه يقول فى إحدى قصائده الهاشمية (رقم ٣ ، الأبيات ٣٩ ، ٤٠) مدحاً فى الرسول :

ما بَيْنَ حوّاء إن نُسِبْتَ إلى آمِنة اعتمّ (٣) نبتُك الهُدُبُ

---

(١) يروى الكتانى فى « صلوات الأنفاس » (طبعة فاس سنة ١٣١٤) ج ٢ ص ١٩٠ عن سيدى محمد ابن الهاشمى (المتوفى سنة ٨٢٣) أحد رجال الدين ، أنه لقب بلقب « النور المحمدى » لأنه « كان إذا رأى أحداً يقول أهلا بالنور المحمدى حتى لقب بذلك » . وهذا لا يمكن أن يكون له معنى إلا إذا كانت التحية موجهة إلى أحد من نسل النبي .

(٢) مارتن هرتمن ، « الشرق الاسلامى » ج١ ص ٣٣٥ *Der islamische Orient* ، وكتابه عن « التركستان الصينية » ص ١٧ *Chinesisch-Turkestan* .

(٣) يترجمها هوروفتس بما معناه : إن شجرة نسبك الدائمة الخضرة تشمل ما بين حواء إلى آمنة ؛ ولكن راجع مع ذلك معانى لفظ « اعتم » والشواهد عليها فى « لسان العرب » تحت هذه الكلمة ، المجلد رقم ١٥ ص ٣٢٠ س ١٣ وما يليه .

قـــرْناً فقرْناً تناسخوك لك الـ فضة منها بيضاءَ والذَّهب [1]

ولن نستطيع أن نفهم هذا إلا على أن جوهر النبي السامى قد وجد منذ حواء ، وأنه (وهنا نراه يشبه بالفضة اللامعة والذهب)[2] انتقل جيلا بعد جيل بدون انقطاع . أى أن جوهر النبي إذاً كان موجوداً وجوداً سابقاً منذ آدم ، وانتقل على صورة جوهر سام من حامله فى هذا الجيل إلى حامله فى الجيل الذى يليه ، حتى ظهر فى محمد جلياً سافراً . ونحب أن نلفت النظر هنا إلى استعمال الكميت لكلمة « تناسخ » للدلالة على هذا الانتقال ، وهذه الكلمة هى الاصطلاح الصحيح الخاص بفكرة انتقال الأرواح من شخص إلى شخص[3] ، والذى استعمله الكتاب المتأخرون باستمرار للدلالة على انتقال

(١) « هاشميات الكميت » ، طبع هوروفتس . وهذه النظرية ينسب إلى على أنه يقول بها فى إحدى الخطب المنسوبة اليه ، « نهج البلاغة » طبع محمد عبده (بيروت سنة ١٣٠٧) ص ٩٥ س ١٠ .

(٢) ليس من غير الممكن أن يكون هناك صلة بين هذا وبين ما اعتاده الافلاطونيون المحدثون وأصحاب الغنوص من تشبيه الجواهر الصادرة عن الله بالمعادن الراقيــة والأحجار الكريمة (« الذهب الابريز » ، « أثولوجيا أرسطوطاليس » طبع ديترتشى ص ٢٠ س ٦ وما يليه) ، وراجع فيما يتعلق بانتقال « الجواهر » لدى الغنوصيين المسيحيين ، اوزنر ، فى كتابه « رسائل دينية »
Usener, *Theologische Abhandhungen, C. v. Weizsäcker... gewidmet* 201 ff., *Kebra nagast*, ed. Bezold, Uebers, 66 f.

(٣) إلى جانب هذا الاصطلاح الشائع الاستعمال للدلالة على انتقال الأرواح من جسم إلى جسم (كذلك يرد فى صيغة أخرى هى « المناسخة » ، كما فى « رسائل » الجاحظ ، طبعة القاهرة سنة ١٣٢٤ ص ١٢٨ س ١ : « فادعى الربوبية من طريق المناسخة » ، وابن خلكان ، طبع فستنفلد ج ٤ ص ١٣٦ السطر الأخير) يوجد الاصطلاح الآخر تقنيص = تقميص ، ويستعمل خصوصاً للبس قميص بدل قميص آخر (راجع القاموس المحيط ، تحت هذا اللفظ) : مذهب أصحاب التقمص ، « المشرق » المجلد رقم ٩ ص ١٠٢٠ س ١٧ ، س ١٨ . وفى ترجمة عربية جزائرية لكتاب الصلوات العبرية المسمى « سدور » (« نظام الصلاة بكل لغة » ، تأليف الياهو خاى جرش ، طبعة ليفورنو سنة ٥٦٤٣ من سنة الخلق) ورقة رقم ٢٤٥ أ ترد العبارة : « سواء فى تقنيص هذا أوله فى تقنيص آخر » ، كترجمة لعبارة عبرية فيها إشارة إلى أكوار التناسخ (جلجول) الذى يترجمها المترجم بكلمة « تقنيص » فى هذه العبارة .

الجزء الالهى فى النفس من إمام إلى إمام آخر(١).

ومن هنا نستخلص كيف أن فكرة انتقال جوهر النبى السامى الموجود وجوداً سابقاً قد وجدت مبكراً فى بيئة الذين تشيعوا لعلى. إذ يجب علينا افتراض أن الشاعر قد عبر هاهنا شعراً عن نظرية كانت عامة شائعة فى البيئة (٢) التى عاش فيها.

— ٤ —

ووجد الاعتقاد بوجود محمد وجوداً سابقاً أعظم صورة وصل إليها فى النظرية القائلة بأنه هو كل التجليات التى تجلت فيها الروح القدسية. فلا خلاف بين الأنبياء إلا فى المظهر الخارجى؛ أما فى الحقيقة فانه رسول واحد، بعث إلى العالمين فى أزمنة مختلفة وفى مظاهر جسمانية متباينة، كى يعلن للناس إرادة الله وينبئهم بمشيئته. وما آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد بمختلف الواحد منهما عن الآخر، ولكنهم جميعاً روح قدسية واحدة متجلية فى صور ومظاهر جسمانية مختلفة، فجوهرهم جميعاً واحد، وليس الاختلاف إلا شيئاً ظاهرياً فحسب.

وهذه النظرية ترجع فى أصلها إلى الغنوصية المسيحية، أى إلى الفكرة التى عبرت عنها المواعظ Homilien المنسوبة إلى القديس كليمانس فقالت (الموعظة رقم ١٨، فقرة ١٣): «ليس ثمة غير نبى صادق واحد، هو إنسان خلقه الله وزوده بروح القدس، يمر خلال عصور العالم (τὸν αἰῶνα τρέχει) منذ البدء، بأسماء وصور متغيرة، حتى يشمله الله برحمته فيبلغ الراحة الأبدية بعد

(١) « تناسخ الجزء الالهى فى الأئمة » (الشهرستانى ص ١٣٣ س ٣)؛ « نور يتناسخ من شخص إلى شخص » (الكتاب السابق ص ١١٣ س ٣؛ ص ١١٤ س ٦).

(٢) كذلك كان يلذ للعباسيين أن يقال لهم إن فضائلهم كانت قد نشأت من قبل فى صلب آدم. فالأغانى (جـ ٩ ص ٦٠ س٦ من أسفل) يورد البيت الآتى من قصيدة فى مدح المأمون:

إن الذى قسم الفضائل حازها ... فى صلب آدم للامام السابع

انقضاء الأعصر التى حددت له كى يؤدى الرسالة التى أخذ على عاتقه أداءها (١) وبهذه النظرية قالت بعض المذاهب فى الاسلام وبعض الحركات السياسية التى أفضت إلى إيجاد مذاهب . ولعل المقنع الدجال وصاحب الفتنة المشهور (٢) أن يكون من أول القائلين بهذه النظرية ، وذلك فى أول الخلافة العباسية . ولعله كان فى مقدورنا أن نعرف الشىء الكثير عن آرائه الدينية لو أن الأخبار الخاصة بحركة المُبَيِّضة (فى الفارسية : سپيد جامكان) التى أوردها البيرونى (٣)، ومحمد بن حسن بن سهل (٤)، والمسعودى (٥)، قد حفظت لنا . والنقطة التى تدور حولها دعوة المقنع ، تبعاً لما بقى لنا من أخبار عن الجانب الدينى من هذه الحركة ، خصوصاً ما حفظه لنا النرشخى (٦) (كتب حوالى سنة ٣٣٢) وابن خلكان (٧)، هى ادعائه أنه أحد التجسدات التى تتجسدها

---

(١) فرديناند كرستين باور ، « تاريخ الكنيسة فى القرون الثلاثة الأولى » ، الطبعة الثالثة ، تيبنجن سنة ١٨٦٣) ص ٢٢٤ F. Chr. Baur, *Kirchengeschichte der drei ersten Jahrhunderte*.

(٢) يشير بهاء الله فى البيان الذى كتبه « إلى علماء الآستانة وحكماء العالم » إلى معجزة القمر التى أتى بها المقنع (« رسائل الشيخ البابى بهاء الله » ، ج ١ طبع روزن ، بطرسبرج سنة ١٩٠٨ ص ٦٥ س ٢٠ وما يليه) .

(٣) راجع تاريخه طبع سخاو ، ص ٢١١ .

(٤) راجع المسعودى ، « مروج الذهب » ج ٨ ص ١٤٠ .

(٥) الكتاب السابق ص ٣٣ .

(٦) « وصف جغرافى وتاريخى لمدينة بخارى » *Description topographique et historique de Boukhara* ؛ طبع النص الفارسى شارل شيفر Charles Schefer (باريس سنة ١٨٩٢) ص ٦٤ ، س ٣ من أسفل : « من آنم كه خودرا بصورت آدم بخلق نمودم وباز بصورت نوح وباز بصورت ابراهيم وباز بصورت موسى وباز بصورت محمد وباز بصورت أبو مسلم وباز باين صورت كى مى بينيد » [وترجمتها : أنا ذلك الشخص الذى ظهرت ، حين الخلق ، فى صورة آدم . ثم فى صورة نوح ، ثم فى صورة ابراهيم ، ثم فى صورة موسى ، ثم فى صورة محمد ، ثم فى صورة أبى مسلم ، ثم فى هذه الصورة التى أنا عليها] .

(٧) ابن خلكان برقم ٤٣١ ، راجع إ . ج . براون « تاريخ الفرس الأدبى » ج ١ ص ٣٢٠ E. G. Browne, *A Litterary History of Persia*.

الروح القدس على أدوار متكررة ، وأنه أحد الصور التي تجلت فيها الروح القدس في آدم وجميع الأنبيـــاء — وفي بعض الروايات ، والعلماء والحكماء أيضاً [١] — حتى أبي مسلم وأخيراً فيه هو نفسه . فكأنه إذاً ليس يختلف عن آدم ونوح وابراهيم الخ ، بل هو قد فاق الصور السابقة عليه بأن الطبيعة الالهية لم تتجل فيهم كاملة كما تجلت في آخر تجلياتها في صورة المقنع . فهم قد تجلت فيهم الطبيعة النفسانية بينما هو قد تجلت فيه روحانية خالصة [٢]. وهو يبعث برسائل في هذا المعنى رواها النرشخي ، فليس بعجيب إذاً إذا كان الذي يروي لنا هذه الرسائل ، وهو سُنِّي (ونعني به ملخص أقواله الفارسي ، أي النرشخي) يقاطع هذه التجديفات بقوله : « خاكش بدهان » أو « خَ بردهان » [أي عليه اللعنة وترجمتها حرفياً : مُلِيءَ فمه رغاما] [٣].

وهذه النظرية عينها تظهر في مذهب الاسماعيلية بطريقة منطقية منظمة . إلا أن الكلام فيه ليس عن تجسد الروح القدس أو الله تجسداً دورياً ، وإنما عن تجلي العقل الكوني في أدوار على صورة الناطق متأثراً في ذلك بنظرية الصدور الأفلاطونية المحدثة ، وهذه نظرية وجدت أحدث تعبير عنها لدى باب ، فانه يقول عن نفسه « كنت في يوم نوح نوحاً ، وفي يوم ابراهيم ابراهيم ، وفي يوم موسى موسى ، وفي يوم عيسى عيسى ، وفي يوم محمد محمداً ، وفي يوم علي قبل نبيل علي ، ولأكونن في يوم من يظهره الله من يظهره الله ، وفي يوم من يظهره من بعد من يظهره الله من يظهره من بعد من يظهره

(١) ابن خلكان ، الموضع المذكور ، ج ٤ ص ١٣٦ س ٣ (فستنفلد) : « ثم إلى صورة واحد واحد من العلماء والحكماء » .

(٢) النرشخي ، الموضع المذكور ص ٦٥ س ٢ : « ايشان نفسانى بودند ومن روحانى ام » [وترجمتها : إن هؤلاء نفسانيون ، أما أنا فروحانى] .

(٣) الكتاب السابق ، ص ٦٤ ، س ٤ من أسفل ؛ ص ٦٥ ، س ٩ ؛ ص ٧١ ، س ٢ ؛ ص ٧٢ ، س ٢ ، وقارن فيما يختص بهذه الصيغة بحثي في « مجلة الجمعية المشرقية الألمانية » ، المجلد ٤٢ ص ٥٨٩ .

الله . . . إلى آخر الذى لا آخر له مثل أول الذى لا أول له . كنت فى كل ظهور حجة الله على العالمين[1] » .

وطبيعى ألا يكون من الممكن أن تجد نظرية تجليات الروح النبوية بعد محمد تجليات متكررة مكاناً لها فى داخل مذهب أهل السنة المسلمين ، ماداموا يؤمنون بالعقيدة القائلة بأن محمداً « خاتم الأنبياء » وهى العقيدة التى حاول المبتدعة فى زمن مبكر جداً أن يزعزعوها[2]. ولكن الصيغة المتواضعة لهذه النظرية والتى نجدها فى المواعظ المنسوبة إلى كليمانس ، والتى تقول بأن تجليات النبى تقف عند حد ونهاية أو سكون على حد تعبيرها (ἀνάπαυσις) يمكن أن نتبينها مشتتة فى كتب أهل السنة ، لأن هذه الصيغة يبدو أنها تلائم العقيدة القائلة بأن محمداً خاتم الأنبياء . فنحن نجد النظرية القائلة بأن محمداً هو نفس الأنبياء السابقين فى حديث أورده ابن سعد ، عن عكرمة عن ابن عباس ، باعتباره كلاماً قاله النبى تفسيراً لقوله [تع] « وتقلبك فى الساجدين » : « قال (أى النبى) معناه من نبى إلى نبى ومن نبى إلى نبى حتى أخرجك نبياً » ، أى إذا كان فهمى له صحيحاً — أن الذى بُعث للناس نبىٌّ واحدٌ ، عصراً بعد عصر حتى ظهر أخيراً فى صورة محمد . ويدل على أن هذا هو معنى تلك النظرية التى تُروى فى سذاجة ، أن هذه النظرية مشار إليها فى القرآن فى قوله

---

(١) ا. ج. براون ، « ثبت ووصف ٢٧ مخطوطة بابية » ، « مجلة الجمعية الأسيوية الملكية » سنة ١٨٩٢ ، ص ٤٧٣ . وراجع أيضاً فيما يتعلق بكيفية فهم البهائية لكون الأنبياء نبياً واحداً ، بحث براون بعنوان « عام بين الفرس » (لندن سنة ١٨٩٣) ص ٣٩٩ *A Year amongst the Persians* .

(٢) وكان أبو منصور العجلى ، الذى صلبه والى الكوفة يوسف بن عمر سنة ١٢٠ هـ = ٧٣٨ م ، يقول بأن « الرسل لا تنقطع أبدا ، والرسالة لا تنقطع » . وكان سلفا للاسماعيلية فى الالتجاء إلى التأويل الرمزى ، والقول بسقوط التكليف بالنسبة إلى من يؤمنون بالامام الحقيق ، وكذلك فى أقوال ونظريات أخرى . وهو قد قال أيضاً بأن « أول ما خلق الله هو عيسى بن مريم وعلى بن أبى طالب » . راجع الشهرستانى ص ١٣٦ ؛ والايجى — والجرجانى (طبعة استامبول سنة ١٢٣٩) ص ٦٢٥ .

« وتقلبك فى الساجدين »[1] (٢٦ : ٢١٩) أى أنه نبي واحد يظهر جوهره فى صور مختلفة كى تبشر المؤمنين فى مختلف العصور[2].

ومن هذا نستطيع أن نحكم إلى أى حد كانت الأحاديث حتى القديمة منها نفسها قابلة للتأثر بسهولة بالأفكار الغنوصية .

ملحق

١ — خاص بصفحة ٢٢٠ تعليق رقم ٤ : يذكر الذهبي فى كتابه فى نقد رجال الحديث عن كتاب « العقل »[3] (بعدأن ذكر آراء احمد بن حنبل وغيره فى مؤلف هذا الكتاب وتجريحهم له تجريحاً شديداً ، قال) : « عن الدارقطنى قال : كتاب « العقل » وضعه ميسرة بن عبد ربه [4] ثم سرقه منه داود بن المحبر فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة [5] ؛ وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء ؛ ثم سرقه سليمان بن عيسى السنجرى » وهكذا نجد عصابة من سراق التآليف ! إلا أن كلمة « سرق » فى الاصطلاح الكتابي فى الشرق ليس لها المعنى السيء الذى يرتبط فى أذهاننا بمقابل هذه الكلمة فى الألمانية . فالناس لا يتورعون

(١) لا يعرف الطبرى فى « تفسيره » (ج ١٩ ص ٦٩) شيئا عن هذا التفسير ؛ والفخر الرازى يقول بهذا التفسير إلى جانب قوله بالتفسير الحرفى فيقول (ج ٦ ص ٥٤٨) : « ان الله تعالى نقل روحه من ساجد إلى ساجد » .

(٢) ابن سعد ، القسم الأول ج ١ ص ٥ س ٩ وما يليه .

(٣) « ميزان الاعتدال » ج ١ ص ٢٨٨ .

(٤) واضع الأحاديث عن فضائل القرآن ، راجع كتابى « دراسات اسلامية » ج ٢ ص ١٥٦ س ١١ ؛ ولشدة نهمه وشراهته لقب بلقب الأكال .

(٥) وهذه طريقة ليس من النادر استخدامها من أجل خداع الناس بأن المرء فضل تحصيل أحاديث النبي بمجهوده الخاص : فيدعى المرء لنفسه ما حصله الآخرون من أحاديث بنصها أو مع بعض التغيير جاعلا لها سندا . فيذكرون عن ابراهيم المصيصى أنه « كان يسرق الحديث ويسويه » أى ويكيفه تكييفاً خاصا ؛ ويذكرون عن على بن محمد الزهرى أنه « كان كذابا ، سرقه (أى الحديث) من ابن أبي علاج وجعل له إسناداً آخر » . راجع صبغة الله المدراسى فى حاشيته على كتاب ابن حجر العسقلانى ، « القول المسدد » ص ٧٩ ص ٨ ؛ ص ٩٢ ، س ٤ .

من أن يصفوا كبار الشعراء بهذا الوصف[١]. وواضح من الفصل المتعلق بالسرقات فى كتاب «حماسة الخالديين» (بروكلمن ج ١ ص ١٤٧) أن هذا اللفظ توسع فى استعماله كثيراً حتى أصبح يشمل التلميذ أيضا[٢]. ونرى شارح «النقائض» يقول عن جرير، الذى استعمل فى إحدى قصائده (رقم ٦٥، البيت رقم ٣٤) لفظ ازْدَهِرْ، إن هذه «كلمة نبطية سرقها (أى جرير) من كلام النبط»[٣]. وهو يدلنا على أن هذه الكلمة (سرقة) لم تكن تستعمل دائما بمعنى سىء مُشين. ويذكرون أن سليمان السنجرى — وقد حُكم عليه بأنه كذاب مصرح — ألف كتابا فى «تفضيل العقل». ومن بين الأحاديث التى وضعها يستحق الحديث التالى أن نورده: [٤] «إذا أتت على أمتى ثلثمائة وثمانون سنة [٥] حلت لهم العُزْبة والترهب على رؤس الجبال»، وهو حديث استخدمه الصوفية تأييداً لمثلهم الأعلى فى الحياة وسلوكهم (الرهبانية)، وهو المثل الأعلى الذى وردت أحاديث أخرى بذمه[٦].

---

(١) راجع بحثى فى «مجلة الجمعية المشرقية الألمانية»، المجلد رقم ٤٦ ص ٤٦ ومايليها.

(٢) ظهر فى مجلة «المقتبس» المجلد رقم ٣، ص ٧٥١ وما يليها. وفى هذا الفصل يستعمل خصوصا اللفظ أخذ، ولكن فى ص ٧٥٢، س ١٠ من أسفل يرد: «طرائف السرقات».

(٣) «النقائض»، طبع بيفان ص ٦٩٠ س ١١.

(٤) «ميزان الاعتدال» ج ١ ص ٣٧٧.

(٥) وتوجد أقوال كثيرة ذاعت على صورة أحاديث، فيها تذكر حوادث محددة بتاريخ معين، مثل الحديث: «إذا كانت سنة خمس وثلاثين ومائة خرجت شياطين حبسهم سليمان بن داود فى جزائر البحر فذهب منهم تسعة أعشارهم إلى العراق يجادلونهم بالقرآن وعشر بالشام» وهو حديث دفع إلى وضعه ما كان يسود ذلك العصر من مناظرات ومنازعات دينية؛ وكذلك مثل: «لو ربى أحدكم بعد الستين ومائة جرو كلب خير من أن يربى ولدا»، وفى هذا اشارة إلى انحطاط الحالة العامة وسوئها؛ أو مثل: «إذا كانت سنة خمسين ومائة فخير أولادكم البنات»، ولست أستطيع أن أستنتج إلى أى شىء تشير هذه النبوءة؛ وأحدث سنة يرد ذكرها هى السنة الواردة فى الحديث التالى: «لا يولد بعد الستمائة مولود ولله فيه حاجة». راجع هذه الأحاديث فى كتاب القاوقجى «اللؤلؤ المرصوع» ص ٢٠ وص ٦٥ وص ١٠٢.

(٦) يورد «قوت القلوب» حديثا تذكر فيه سنة مائتين باعتبارها السنة التى فيها =

٢ — تعليق على ص٢٢٦ . وقد زخرفت الشيعة هذه الأساطير بكثير من الأشياء المتغالى فيها ، تغالياً دعا المعتدلين من أئمة الشيعة إلى ذمها . فنرى محمد بن محمد بن النعمان ، المشهور فى كتب الشيعة باسم الشيخ المفيد (توفى سنة ٤١٣ ؛ راجع لوث ، فهرست كتب المكتب الهندى Loth, *Catalogue India Office* يجيب على سؤال ألقى إليه خاصاً بقيمة أمثال هذه الأساطير بما يلى : « إن الأخبار بذكر الأشباح تختلف ألفاظها وتتباين معانيها ، وقد نبَّت الغلاةُ عليها أباطيلَ كثيرة ، وصنفوا فيها كتباً لغوا فيها وهزءوا فيما أثبتوا منه فى معانيها ، وأضافوا (بأجوبة) الكتب إلى جماعة من شيوخ أهل الحق ، وتحرّصوا الباطل باضافتها إليهم ، من جملتها كتاب [فى نص المؤلف : الكتاب] سموّه كتاب «الأشباح والأظلة» ، نسبوه فى تأليفه إلى محمد بن سنان ولسنا نعلم صحة ماذكروه فى هذا الباب عنه . وإن كان صحيحاً ، فان ابن سنان قد طُعن عليه وهو متهم بالغلوّ ، فان صدقوا فى إضافة هذا الكتاب إليه فهو ضلال ضالٍّ وإن كذبوا فقد تحملوا أوزار ذلك » . وبعد ذلك يقدم لنا الرواية الصحيحة فى نظره للأساطير المتعلقة بالأشباح النورانية . (أورده دلدار على فى كتاب « مرآة العقول فى علم الأصول » ، طبعة لكنوف سنة ١٣١٩ هـ ، جـ ٢ ص ١٤٤) — عباس محمد بن الحسن بن سنان فى النصف الأول من القرن الثالث ؛ قال عنه الطوسى فى كتابه « فهرست كتب الشيعة » تحت رقم ٦٣٨ : « وقد طعن عليه وضعّف » .

= يحدث هذا التحول ؛ راجع «مجلة تاريخ الأديان» المجلد رقم ٣٨ ص٣١٤ . وقارن بهذا الحديث الذى أورده الغزالى فى « الاحياء » جـ ٢ س ٢١ : « خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذى لا أهل له ولا ولد » ، وفى كتاب « اتحاف السادة » جـ ٥ ص ٢٩١ روايات أخرى لهذا الحديث ، وملاحظات نقدية عليه .